باب العقائد من الأمالي الدينية (*)

(الدرس ٣٧ في نبوة محمد عليه الصلاة والسلام)

(المسألة ١٠٣) حكمة ظهور الاسلام في العرب: نذكرهنا كلمة من مقالة (إعادة مجد الاسلام) التي كتبناها في الجزء الرابع من المجلد الثالث وهي:

«كان العالم الانساني قبل ظهور الاسلام في غمرة من الشقاء والتعاسة وظلمات من الفتن وفساد الأخلاق وتداعي أركان المدنية السابقة وصدع بنيانها فأراد الحي القيوم ان يحيي هذا النوع حياة طيبة ويقيم بناء مدنيته على أساس من الحكمة ليثبت ويبقى الى ماشاء الله تعالى ويبلغ به الانسان كماله المستعد هوله في أصل الفطرة القويمة فأظهر له جل ثناؤه الاسلام في الأمة العربية فحملته وطافت به العالم المستعد لقبوله بما سبق له من المدنية فما كان الا كلمح البصر أو هو أقرب، حتى عم نوره المشرق والمغرب، ودخل الانسان في طور جديد وأقام أركان مدنيته على أسس جديدة ثابتة لاتتزعزع ولا تتزلزل مادامت الارض أرضا والسماء سماء. وكيف تتزلزل نواميس الفطرة أوتزول سنن الخليقة وقد أخبر مبدعها الحكيم الخبير بأنها محفوظة من التبديل والتحويل

«لماذا اختار الله الأمة العربية لهذا الاصلاح على سائر الامم؟ اختارها وهو أعلم لأسباب ووجوه

(*) نشر الدرس السادس والثلاثون في الكراسة ٤٢ من المجلد الخامس (ص ٣٣٩) وشفعنا بعد ذلك بمقالات الاسلام والنصرانية وأم القرى مع التفسير عن تتابع مقالات العقائد. وكان ذلك الدرس في نبوة خاتم النبيين والحاجة الى عمومها والاستعداد العام لها ووعدنا فيه ببيان حكمة كونه من العرب وبيان ارتقاء الدين من كلام الاستاذ الامام وهذا الثاني قد ذكرناه في غير الأمالي فلا نعيده

«(أحدها) انها كانت وسطا بين الأمم التي سبقت لها المدنية والبلاد التي أقيم فيها من قبل بناء الحضارة وهي بلاد مصر وسوريا والجزيرة والعراق وفارس حيث كان التمدن الكلداني والاشوري والبابلي والفارسي والفينيقي والمصري واليوناني والروماني فيسهل عليها بذلك ان ترمي بذور المدنية فى الارض القابلة وتلقي مبادئ الاصلاح فى النفوس المستعدة

(ثانيها) أنها كانت ـ ولا مدنية لها سابقة (معروفة) ـ اشد استعدادا من تلك الامم التي سبقت لها المدنية لمبدإ الاصلاح الاسلامي الجديد ووضع اساسه الاول وهو استقلال الارادة واستقلال الفكر والرأي لانه لم يكن لها رؤساء فى الدين والسياسة يحكمونها بالجبروت والاستبداد فتفنى إرادتها فى إرادتهم، وتتلاشى آراء افرادها فى آرائهم، فلا يرجع اليهم أحد قولا، ولا يملك لنفسه من دونهم ضرا ولا نفعا، وأما تلك الأمم فقد كان المرؤسون فيها ذائبين فى رؤساء الدين والدنيا حتى لم تبق لهم إرادة ولا فكر ولا رأي الا ما ينفذ إرادة الرؤساء ويمثل أفكارهم وآراءهم (ومن هنا تفهم حكمة ظهور الاسلام بمظهر السيادة وعناية خلفائه بالفتح والاستيلاء وهي ازالة ذلك السلطان الغاشم والاستبداد القاهر ليكون الناس أحرارا فيما يعتقدون ولهم بعد ذلك الخيار فى الاسلام وعدمه إذ «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي» وزال المانع من طريق الادراك والفهم)

«(ثالثها) أن رقة الوجدان وقوة الفهم والادراك كانتا بالغتين فيها درجة الكمال بمجرد سلامة الفطرة. وأمة هذا شأنها تكون أقبل الأمم

لدين الفطرة الذي جاء يخاطب العقل والوجدان معاً ويمحو من الكون أثر التقليد الاعمى ويطمس رسومه ، وتكون أسرع انفعالاً بالمؤثرات ، وأشد تمسكاً بالمعتقدات ،

« (رابعها) أنه كان عندها من عزة النفس وشدة البأس وكمال الشجاعة والحرية الشخصية وما يتبع هذا من الفضائل ما يحملها على حفظ ماتعتقده حقا والاستماتة فى المدافعة عنه على حين أمات نفوس الامم الاخرى وذهب بارادتها ماتواتر عليها من الظلم والاضطهاد أحقاباً طويلة حتى سهل عليها مشايعة الظالمين على خذل الحق وتأييد الباطل كما هو واقع فى غير أهل البادية من المسلمين لهذا العهد . وهذا الوجه يقرب فى المعنى من الوجه الثاني

« (خامسها) أنه لم يكن عند العرب من التقاليد الدينية شئ يستندون فيه على وحي سماوي وعلى سلف من الانبياء أو الحكماء والربانيين فيدافع ماجاء به الاسلام أو يزاحمه . وإنما كان عندهم الشرك فى العبادة الذي يسهل إبطاله بالبرهان ، على وجه يقبله العقل ويشمل له الوجدان ، اذا وجد استقلال الفكر والرأي وكذلك كان » اه

ونزيد الآن سببا سادسا هو السبب الاظهر ، والوجه الانور ، ونذكره على النسق السابق فنقول

(سادسها) كون العرب أمة أمية لاتقرأ ولا تكتب ولم تمارس الاحكام السياسية والمدنية والقضائية . وبيان هذا من وجهين — أحدهما مافهم من الاسباب السابقة وهو وجوب كون الاصلاح الجديد الذي احتاجته الامم كلها غير مشوب بشئ من أمشاج الاديان والمدنيات

السابقة لان تلك الاديان قد انطمست وجوهها وتلك المدنيات قد انقلبت الى ترف مفسد وبهيمية محضة . فلو ظهر الاصلاح فى أهلها لصدهم عنه ماهم فيه ولضاع الزمن الطويل فى مكافحة الجديد للقديم وكانت الاقوام قد تقيدت بما هي فيه حتى لا طريق لخروجها منه الا قارعة من دونهم تحل بهم فتزلزل ماهم فيه زلزالا .

كانت تلك الامم تقيم بناء مدنيتها على اركان الدين والعلم والسياسة المنتظمة وأحكامها وهذه هى أركان السعادة البشرية فى هذه الحياة ولكنها اساءت استعمالها فلفحها هجير الشقاوة فكانت من تلك الاركان فى ظل ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغني من اللهب ، بل كان كل ماحل بها من الشقاء هو من دخان ذلك الظل الذي ذهب بكل نور ، فالاديان كانت قد انقلبت وثنية تضل العقول ، وتذل النفوس ، والعلوم كانت وسائل الترف ، وذرائع السرف ، والاحكام كانت سوط البغي والعتو ، وسيف القهر والعلو ، فكانت جميع آلات الرقي ، آلات للتدلي والهوي ،

وكانت العرب فى إبان ذلك خلوا من كل ذلك ولكنها كانت على جهلها وفساد أخلاقها ترتقي فى بداوتها ارتقاء فطريا ، وتستعد لقبول الهداية استعدادا طبيعيا ، حتى اذا جاءها العلم والاصلاح كانت كما قيل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

(والوجه الثاني) وهو اوجه الوجوه وأظهر الاسباب والحكم ظهور الآية الكبرى والحجة العظمى — ظهور العلم الأعلى ، والتعليم الاجلى ، على يد أمي نشأ فى الاميين ، وتربى بين الجاهلين ، ولو نشأ فى أمة من تلك الامم لقيل انه عالم نقح العلوم وهذبها ، وحرر الشرائع وشذبها ،

وحكيم نظر فى تاريخ البشر ، فاستخرج منها الحكم والعبر ، «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون»

(م ١٠٤) حال النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته: لم يكتب الكاتبون فى هذا المقام مثلما كتبه فى رسالته الاستاذ الامام ذلك أنه بين ما كانت عليه الامم قبل البعثة من الفساد والشرور ثم قال :

« أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الاقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحي اليه رسالته . ويمنحه عنايته،ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم ، التى أذلت رؤس جميع الامم ؟ نعم كان ذلك ولله الامر من قبل ومن بعد

« فى الليلة الثانية عشرة من ربيع الاول عام الفيل (٢٠ ابريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام) ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم القرشي بمكة . ولد يتيما توفي والده قبل ان يولد ولم يترك له من المال الا خمسة جمال وبعض نعاج (١) وجارية ويروى أقل من ذلك وفى السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضا فاحتضنه جده عبد المطلب وبعد سنتين من كفالته توفي جده فكفله من بعده عمه أبو طالب وكان شهما كريما غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله . وكان صلى الله عليه وسلم من بني عمه وصبية قومه كاحدهم على ما به من يتم فقد فيه الابوين معا وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ولم يقم على تربية مهذب ، ولم يعن بتثقيفه مؤدب ، بين اتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الاوهام،وأقرباء من حفدة

(١) قيل خمس وقيل تسع

الاصنام ، غير انه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدنا وعقلا وفضيلة وأدبا حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه بالأمين. أدب الهي لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الايتام من الفقراء خصوصا مع فقر القوام . فاكتمل صلى الله عليه وسلم كاملا والقوم ناقصون، رفيعا والناس منحطون، موحدا وهم وثنيون ، سلما وهم شاغبون ، (١) صحيح الاعتقاد وهم واهمون ، مطبوعا على الخير وهم به جاهلون، وعن سبيله عادلون،

« من السنن المعروفة ان يتيما فقيرا أميا مثله تتطبع نفسه بما تراه من أول نشأته الى زمن كهولته ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه لاسيما ان كان من ذوي قرابته وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ، ولا أستاذ ينبهه ، ولا عضد اذا عزم يؤيده. فلو جرى الامر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم . وأخذ بمذاهبهم الى أن يبلغ مبلغ الرجال، ويكون للفكر والنظر مجال، فيرجع الى مخالفتهم ، اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده (٢) ولكن الامر لم يجر على سنته بل نظرت اليه الوثنية من مبدإ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة، وما جاء في الكتاب من قوله « ووجدك ضالا فهدى » لا يفهم منه انه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد أو على غير السبيل القويم ، قبل الخلق العظيم ، حاش لله ان ذلك لهو الافك المبين . وانما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الاخلاص، فيما يرجون للناس من الخلاص، وطلب السبيل

(١) استشهد له بقصة اختلاف القبائل ايهم يضع الحجر الاسود في موضعه يوم بناء الكعبة وكادوا يقتتلون لولا ان أصلح بينهم بما أرضاهم جميعا (٢) كامية ابن أبي الصلت وعمرو بن نفيل

الى ماهدوا اليه من انقاذ الهالكين، وارشاد الضالين ، وقد هدى الله نبيه الى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته »

« وجد شيئا من المال يسد حاجته - وقد كان له فى الاستزادة منه مايرفه معيشته - بما عمل لخديجة رضي الله عنها فى تجارتها وبما اختارته بعد ذلك زوجا لها وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له وعون على بلوغه ما كان عليه اعاظم قومه . لكن لم ترقه الدنيا ولم تغره زخارفها، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله فى الوصول الى ماترغبه الانفس من نعيمها، بل كلما تقدم به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الناس كافة ونما فيه حب الانفراد والانقطاع الى الفكر والمراقبة والتحنث بمناجاة الله تعالى والتوسل اليه في طلب المخرج من همه الاعظم فى تخليص قومه ونجاة العالم من الشر الذي تولاه، الى أن انشق له الحجاب عن عالم كان يحثه اليه الالهام الالهي ، وتجلى عليه النور القدسي ، وهبط عليه الوحي من المقام العلي، فى تفصيل ليس هذا موضعه

« لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه وكانت نفوس قومه فى انصراف تام عن طلب مناصب السلطان، وفى قناعة بما وجدوه من شرف النسبة الى المكان ، دل عليهما ماقاله جده عبد المطلب عند زحف ابرهة الحبشي على ديارهم . جاء الحبشي لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام، وبيتهم الحرام، ومتجمع حجيجهم، ومستوى العلية من آلهتهم، ومنتهى حجة القرشيين فى مفاخرتهم لبني قومهم ، وتقدم بعض جنده فاستاق عددا من الابل فيها لعبد المطلب مئتا بعير وخرج عبد المطلب

في بعض قريش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته فقال: هي أن ترد الي مئتي بعير أصبتها لي: فلامه الملك على المطلب الحقير، وقت الخطب الخطير، فأجابه: انا رب الابل أما البيت فله رب يحميه: هذا غاية ماينتهي اليه الاستسلام وعبد المطلب في مكانه من الرياسة على قريش فأين من تلك المكانة محمد صلى الله عليه وسلم في حاله من الفقر ومقامه في الوسط من طبقات أهله حتى ينتجع ملكا أو يطلب سلطانا؛ لامال لاجاه لاجند لاأعوان لاسليقة في الشعر لابراعة في الكتاب، لاشهرة في الخطاب، لاشيء كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة، أو يرقى به الى مقام مابين الخاصة،

«ماهذا الذي رفع نفسه فوق النفوس، ماالذي أعلى رأسه على الرؤس، ماالذي سما بهمته على الهمم، حتى انتدب لارشاد الامم. وكفالته لهم كشف الغمم بل واحياء الرمم؟؟ ما كان ذلك الا ماألقى الله في روعه من حاجة العالم الى مقوم لما زاغ من عقائدهم، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم، ما كان ذلك الا وجدانه ريح العناية الالهية ينصره في عمله، ويعده في الانتهاء الى أمله، قبل بلوغ أجله، ماهو الا الوحي الالهي يسعى نوره بين يديه فيضيء له السبيل، ويكفيه مؤنة الدليل، ماهو الا الوعد السماوي، قام لديه مقام القائد والجندي، أرأيت كيف نهض وحيدا فريدا يدعو الناس كافة الى التوحيد، والاعتقاد بالاله المجيد والكل مابين وثنية مفرقة ودهرية وزندقة.

«نادى في الوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم وفي المشبهين المنغمسين في الخلط بين اللاهوت الاقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من

تشبيههم وفي الثانوية بافراد اله واحد بالتصرف في الاكوان ورد كل شيء في الوجود اليه*أهاب بالطبيعين ليمدوا بصائرهم الى ماوراء حجاب الطبيعة فيتنوروا سر الوجود الذي قامت به *صاح بذوي الزعامة ليهبطوا الى مصاف العامة في الاستكانة الى سلطان معبود واحد هو فاطر السموات والارض والقابض على أرواحهم في هيا كل أجسادهم*تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الاعلى فبين لهم بالدليل وكشف لهم بنور الوحي أن نسبة أكبرهم الى الله كنسبة أصغر المتقدين بهم وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية، الى أدنى سلم من العبودية، والاشتراك مع كل ذي نفس انسانية في الاستعانة برب واحد يستوي جميع الخلق في النسبة اليه لايتفاوتون الا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة * وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له، ويحلوا أغلالهم التى أخذت بأيديهم عن العمل، وقطعتهم دون الامل * مال على قراء الكتب السماوية. والقائمين على ماأودعته من الشرائع الالهية. فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم. وشدد النكير على المحرفين لها الصارفين لالفاظها الى غير ماقصد من وحيها اتباعا لشهواتهم. ودعاهم الى فهمها، والتحقق بسر علمها، حتى يكونوا على نور من ربهم*ولفت كل انسان الى ماأودع فيه من المواهب الالهية ودعا الناس اجمعين ذكورا وإناثا عامة وسادات الى عرفان أنفسهم وأنهم من نوع خصه الله بالعقل وميزه بالفكر وشرفه بهما وبحرية الارادة فيما يرشده اليه عقله وفكره وأن الله عرض عليهم جميع مابين أيديهم من الاكوان وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد الا الاعتدال

والوقوف عند حدود الشريعة العادلة والفضيلة الكاملة. وأقدرهم بذلك على أن يصلوا الى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد الامن خصهم الله بوحيه. وقد وكل اليهم معرفتهم بالدليل كما كان الشأن فى معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع. والحاجة الى أولئك المصطفين انما هى فى معرفة الصفات التى أذن الله أن تعلم منه وليست فى الاعتقاد بوجوده. وقرر أن لاسلطان لاحد من البشر على آخر منه الا مارسمته الشريعة وفرضه العدل ثم الانسان بعد ذلك يذهب بارادته الى ماسخرت له بمقتضى الفطرة * دعا الانسان الى معرفة أنه جسم وروح وأنه بذلك من عالمين متخالفين وان كانا ممتزجين وأنه مطالب بخدمتهما جميعا وإيفاء كل منهما ماقررت له الحكمة الالهية من الحق * دعا الناس كافة الى الاستعداد فى هذه الحياة لما سيلاقون فى الحياة الاخرى وبين لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الاخلاص لله فى العبادة والاخلاص للعباد فى العدل والنصيحة والارشاد

* * *

«قام بهذه الدعوة العظمى وحده ولا حول له ولا قوة — كل هذا كان منه والناس أحباء ماألفوا وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة. أعداء ماجهلوا وان كان رغد العيش وعز السيادة ومنتهى السعادة. كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم وعبيد شهواتهم لايفقهون دعوته. ولا يعقلون رسالته. عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة. وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر فى دعوى فقير امي مثله لايرون فيه مايرفعه الى نصيحتهم والتطاول الى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف

«لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ويناضلهم بالدليل ويأخذهم بالنصيحة ويزعجهم بالزجر وينبههم للعبر ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة كأنما هو سلطان قاهر في حكمه عادل في أمره ونهيه أواب حكيم في تربية ابنائه شديد الحرص على مصالحهم رؤف بهم في شدته رحيم في سلطته

« ماهذه القوة في ذلك الضعف ؛ ماهذا السلطان في مظنة العجز ؛ ماهذا العلم في تلك الامية ؛ ماهذا الرشاد في غمرات الجاهلية ؛ إن هو إلا خطاب الجبروت الاعلى . قارعة القدرة العظمى . نداء العناية العليا * ذلك خطاب الله القادر على كل شيء الذي وسع كل شيء رحمة وعلما * ذلك نداء أمر الله الصادع يقرع الآذان ويشق الحجب ويمزق الغلف وينفذ الى القلوب على لسان من اختاره لينطق به واختصه به وهو أضعف قومه ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه بعيدا عن الظنة بريئا من التهمة لاتيانه على غير المعتاد بين خلقه

« أي برهان على النبوة أعظم من هذا ؛ أمي قام يدعو الكاتبين الى فهم ما يكتبون وما يقرؤن ؛ بعيد عن مدارس العلم سماح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون * في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء * ناشيء بين الواهمين هب لتقويم موج الحكماء * غريب في أقرب الشعوب الى سذاجة الطبيعة وابعدها عن فهم نظام الخليقة والنظر في سننه البديعة . أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ويخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها ولن يخلص تاركها .

« ماهذا الخطاب المفحم ؛ ما ذلك الدليل الملجم ؛ أأقول « ماهذا

بشرا ان هذا الا ملك كريم » ؛ لالا أقول ذلك ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه : إن هو إلا بشر مثلكم يوحى اليه : نبيّ صدق الانبياء ولكن لم يأت فى الاقناع برسالته بما يلهي الابصار أو يحير الحواس أو يدهش المشاعر ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له واختص العقل بالخطاب ، وحاكم اليه الخطأ والصواب ، وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » اهـ

الكرامات والخوارق

تتمة المقالة العاشرة

(المسألة الخامسة والعشرون) ذكر الشيخ الاكبر فى فتوحاته أن الكرامة على قسمين كرامة حسية كالمشي على الماء وكرامة معنوية وهى التوفيق لكمال المحافظة على حدود الشريعة ظاهراً وباطنا وما ينشأ عن ذلك من العلوم والمعارف الالهية . وذكر ان الاكابر لا يحفلون بالكرامات الحسية وأن اعظم كرامة عندهم العلم بالله تعالى والدار الآخرة وما تستحقه الدار الدنيا وما خلقت له ولاي شيء وضعت حتى يكون الانسان من امره على بصيرة من حيث كان فلا يجهل من نفسه ولا من حركاته شيئاً . بل قال : إن الكرامة ليست الا العلم اما المعنوية فظاهر ان العلم مبداها وثمرتها واما الحسية فانه يشترط ان تكون بتعريف الهي وهو عين العلم :

وتقول ان هذه الكرامة المعنوية لا ينكرها احد وكلها نفع وليس فيها ضرر ولا خداع فان العلم نور لا ظلمة فيه . والولي المحمدي لا يليق به التعويل على غير هذه الكرامة فان آية نبيه الكبرى معنوية والكرامة قبس من نور المعجزة كما يقولون

(المسألة السادسة والعشرون) ذكر الشيخ الاكبر فى فتوحاته ايضاً أن الخوارق التى تحصل على ايدي الصالحين قد يكون فيها مكر خفي واستدراج . وشرط لصحة كونها كرامة اكرم الله بها العبد لا مكراً به ولا استدراجا له ان